يعالج هذا الفصل قضية تطور الوعي الديني في المشرق القديم الذي صار فيما بعد عربياً ، وهي تتناول جوانب البُنى الاجتماعية ومستوياتها الفكرية وظروفها الجغرافية عبر تداخل يكشف نمو هذا الوعي بسياقه البشري.

تطـــور الوعـــي الديني في المشـــرق القديـــم

عبد الله خليفة

(١-٤)

١ . جذور الصراع، لقد حدث الاستقرار الزراعي في منطقة المشرق بعد العصور الحجرية القديمة والمتوسطة، التي كان الناس فيها صيادين وجامعي ثمار، وفي العصر الحجري الحديث، وفي قمته ، بدأ الانقلاب الزراعي، ونجد في الحضارة (التاسية) مصرية الشكل المزاوج بين الصيد والزراعة، وفي حضارة (البداري)، المصرية كذلك، حدث الشكل الزراعي المكتمل، فظهرت القرية الزراعية.

من هذه القرية الزراعية الأولى تطورت المدينة المهيمنة على بقعة زراعية ما، وظهرت فيها دولة المدينة، وتشكلت السلطة الأولى في المعبد الديني التي يبرز فيها الكاهن أو الساحر. لقد كان لهيمنة المعبد على الإنتاج دورها في التضفير بين الدين والدولة، وفي السيطرة المركزية في دولة المدينة. إن ازدواجية دور الكاهن. الحاكم، أو الساحر. الملك، يضفي سيطرة شاملة من قبل الدولة على المدينة من خلال الدين . والحقيقة إن الآلهة ليست هي التي تحكم المدينة حقيقة، ولكنه الساحر. الحاكم أو الملك. الكاهن، ولكن السحرة والكهنة لا يحكمون إلا من خلال هذه الميثولوجيا، فهذه الأساطير هي التي تبقى دائمة، ويتم عبرها تشكيل السيطرة السياسية المتحولة الملموسة. إن الملوك والكهنة في المدينة وهم يسيطرون على المعبد ، مركز الملكية الإنتاجية العامة، يسيطرون كذلك على إنتاج الوعي وخطوطه العريضة.

ومن المؤكد إن ثمة جذوراً عميقة وبعيدة لهذه السيطرة، في الملكية المشاعية وفي الأدوار المهمة التي تلعبها العناصر المثقفة، والتي هي من ثمار الانقسام بين العمل الذهني والعمل اليدوي، وهي التي ستشكل المدخل للانقسام الاجتماعي بين المالكين والعاملين، فالسحرة والملوك وإداريو المعابد، وهم يسيطرون على إدارة المعابد يمثلون هذه القوى الذهنية وقد بدأت بالتحكم في العمل اليدوي والخيرات التي ينتجها. إن الانقسامات الاجتماعية الأخرى تبقى متوارية، فالانقسام بين الرعاة والمزارعين لا يتضح هنا، لكون القبيلة التي انتقلت إلى الزراعة بدأت ذلك من زمن موغل في القدم، ويعتمد الأمر على إنتاجية الزراعة الهامة المركزية في هذه الحقبة، وكون الرعي يظل مهنة صعبة وملحقة بالقرية أو المدينة .

وهذه السيطرة المتوارية للزراعة على الرعي، تغدو سيطرة واضحة متصاعدة للرجال على النساء، عبر هذا الانقلاب الذكوري المستمر . لكن في قلب الانقلاب يظهر العنصر المثقف والسياسي، يظهر العمل الفكري وهو يسيطر على العمل اليدوي، مثلما تتركز السلطة الروحية والسياسية تدريجياً في نموذج وحيد في دولة المدينة. إن الانفكاك الذي حدث في صيغة الكاهن. الملك، باتجاه هيمنة الملك، تعود إلى تنامي أجهزة الدولة، واتساع مهماتها، من إدارة الدفاع وشن الحروب وتوسع الدولة . المدينة ، فالمتطلبات المادية للطبقة المسيطرة المتشكلة حديثاً، أو قديماً، يتطلب التوسع في الأراضي المملوكة للمعبد، وسيكون هذا قانوناً من قوانين التطور والهلاك في المدينة . الدولة المسيطرة . فهذا التوسع يتطلب النمو المتواصل للقوى العسكرية، وسيعتمد ذلك على حجم القبيلة أو القبائل المستقرة، ويؤدي إلى ضم مناطق الجيران وإلحاق المناطق الرعوية أو الزراعية بسيطرة المدينة . الدولة، مما يقود إلى اتساع الموارد والسوق التجارية، وهذا يؤدي إلى المركزة في إدارة الدولة السياسية، وتغلب الملك على الكاهن، وصيرورة الكاهن ملكاً، والملك كاهناً . لكنه يؤدي من جهة أخرى، إلى الاصطدام بالجيران وقيام المناطق الأخرى والمدن والقبائل الرعوية بالهجوم على المدينة . الدولة، التي غدت (الكنز) الذي تجمعت فيه تراكمات العمل المحلي والمناطقي، لتتشكل عملية إعادة توزيع. إن هذه العمليات الطويلة من الصراع والإنتاج والتراكم تؤدي إلى التوسع المستمر في دولة المدينة نحو التكوين الكبير، سواء كان على هيئة دولة من عدة مدن، أم على شكل إمبراطوريات، تجري فيها هذه العمليات الصراعية التحولية على نطاق المنطقة، لكن قانون هيمنة القصر . المعبد يظل سارياً، فالقصر هو الذي يهيمن على المعبد، فالسوق، فالإنتاج وجميع مظاهر الحياة الأساسية . وفي الوقت الذي تجرى فيه هذه العمليات الصراعية الاجتماعية، فإن الجانب الديني لا ينفصل عنها، فهو جزء رئيسي من تكونها، من حيث إنه نتاج عام لتشكلها وأداة لترابطها ولوعيها بالعمليات الاجتماعية، فيظهر بأنه هو الذي يصوغ تاريخها، وليست هي التي تشكله. (إن الآلهة كانوا يرقبون عن كثب أحداث الساعة وقضاياها البارزة عند قيامهم بالتحديد السنوي لمصير بابل وأهلها، كما كانوا يؤكدون وجودهم الطاغي في كل مكان، وتأييدهم أيضاً للنظام السائد وسلطاته المستمدة منهم.). ومن الواضح إن الآلهة لم يكونوا يؤكدون ذلك عبر وجودهم المباشر، بل عبر الأجهزة السياسية والكهنوتية . لقد تم ظهور (مجمع للآلهة) الذي يباشرون منه سلطاتهم المتعددة، والمجمع يشير إلى العائلة الملكية الإلهية، أو القبيلة النوارنية الحاكمة في الأعالي، وهي ترميز للطبقة الملكية . الكهنوتية التي يتمثل فيها النور والعلو والسيادة . وإذا جئنا إلى قراءتها، في بعدها الاجتماعي ، فالأسرة الإلهية المتعددة المتصارعة المتضامنة، تشير إلى تعدد المستويات السياسية في المدينة، فهناك الأسرة الملكية الحاكمة الحقيقية، وهناك الكهنة في المعابد المختلفة والإدارات المختلفة . وإذا كان الرجال قد فرضوا سلطتهم العامة على النساء، إلا أن النساء متواجدات في الأعمال الزراعية وفي الحياة العامة بقوة، وهذا ما يشير إليه الحضور المهم للإلهة الأنثويات، أنآنا، وعشتار ومثيلاتها في المشرق. لكن ظهور الإله المهيمن في الأسرة الملكية الإلهية يبدو واضحاً في كل تشكل سياسي عام، بهيمنة (آنو) وتصاعده المستمر في الميثولوجيا الرافدية، حيث يشير إلى هذه الوحدة السياسية المتعاظمة في جنوبي ووسط العراق . إن أنليل يظل مستمر الوجود معبراً عن عدم الانطفاء للمناطق السومرية النهرية، كذلك فإن (مردوخ) يكبر مع تعاظم نفوذ الدولة البابلية، وكذلك يتصاعد إله (آشور) مع اتساع إمبراطوريتهم.

٢ . السلطة والمجتمع الزراعي، إن هذه المجمعات من الآلهة تشير كذلك إلى عدم الانصهار في عملية سيطرة دولة المدينة على المدن والمناطق الأخرى، حيث تقوم بترك السلطات المحلية في سيطرتها، وتأخذ (الغنائم أو الأسلاب أو الخراج) منها، فتتحول الآلهة المناطقية إلى المجمع العام للآلهة وكتوابع للآلهة الكبرى، مثلما يحدث بالنسبة للمناطق التي تغدو ملحقة بالمدينة . المركز، أو مثلما يحدث بالنسبة للحكام الإقليميين الذين يغدون ولاة أو نواباً للملك. إن المدينة . الدولة، حيث الزراعة هي العمل الإنتاجي الأساسي، وتأتي الحرف والتجارة كمهن مكملة، تقوم بإعادة إنتاج نفسها على مستوى دوائر تتسع دوماً، ملتهمة الدوائر الأخرى دون أن تلغيها، وهدف العملية الحصول على الفوائض المالية دون أن تحدث عمليات تقدم كبرى في الإنتاج. فكما أن الحرف الهامة متخصصة في الإنتاج للقصر، وكما تتبع العمليات الثقافية من تنجيم وفلك وطب حاجات الأرستقراطية المختلفة، فكذلك تتبع الآلهة تبدلات وأهداف الحكام . وعلينا أن نرى التبدلات الكبرى للآلهة كحصيلة للصراعات الشاملة غير المرئية في العراق، بمعنى أن نقرأ أسباب العلو المستمر للإله (آنو) والانطفاء التدريجي للآلهة الأخرى. لقد أعطى السومريون أولى الملامح والملاحم لكيفية نشوء الآلهة، لقد ازدهرت (الثقافة السومرية في الجزء الأسفل من حوض دجلة والفرات وحول الشواطئ العليا للخليج العربي، منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد). وتقول أسطورة الخلق السومرية بأنه في بدء الكون، لم يكن ثمة أحد سوى الآلهة الأنثوية(نمو)، وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء، وقد أنجبت الآلهة نمو ولداً وبنتاً، والأول هو (آن) إله السماء المذكر، والثانية (كي) آلهة الأرض المؤنثة، وكانا ملتصقين مع بعضهما، وغير منفصلين عن أمهما، وتزوج الأخوان وأنجبا (أنليل) إله الهواء الذي كان في مساحة ضيقة بينهما، حتى قام بإبعاد أبيه عن أمه . رفع الأول فصار سماءً، وبسط الثانية فصارت أرضاً، وكان يعيش في ظلام دامس، فأنجب ابنه نانا إله القمر، الذي أنجب بدوره (أوتو) إله الشمس . ويفسر فراس السواح هذه الأسطورة بشكل طبيعي، فيقول إنه في البدء لم يكن سوى المياه التي صدر عنها كل شيء وكل حياة، وفي وسط المياه ظهرت أرض، متحدة بالسماء، ومن اتحادهما ظهر الهواء، ولم يكن القمر السابح في الهواء إلا ابناً له الخ ... لا شك إن التفسيرات الطبيعية والاجتماعية والنفسية التي ساقها المؤلف فرس السواح، لها جذورها، ولكن الآلهة تعبير كذلك عن السلطات المختلفة، وهنا نجد الأسطورة الدينية تحدد التحولات السياسية التاريخية بين المجتمع الأمومي والمجتمع الذكوري. حيث مثلت الأم ذلك المجتمع الراكد المحدود، من وجهة نظر صائغي الأسطورة، وهي التي كانت فيه سيدة الوجود المائي الزراعي، والمجتمع الأمومي هو الذي شكل الزراعة عند شواطئ الأنهار، وعبر تراكماته الاقتصادية والبشرية، أوجد العائلة الأبوية الأولى، حيث لا تزال الأم قوية فيها، ولكن الابن شكل الانقلاب الذكوري عبر الانفصال عن سلطة الأم والأرض والزراعة فيها، وعبر الصعود إلى السماء .إن ظهور السماء المنفصلة عن الأرض، وتشكل السلطة الأولى المفارقة للمنتجين، عبر الإله (آنو)، حيث سيتمترس في الأعالي، تعبر عن الانقلاب الذكوري القديم الأول، الذي وضع التمايزات الأولى بين السلطة السياسية والمنتجين المزارعين . لقد كانت السماء في وعي القدماء هي مصدر المطر والنور والهواء، أي كل ما يغذي الأرض والزراعة، فهي الأصل في وجود هذه الحياة . ويعبر ذلك عن وعي المهيمنين على المعابد والمدينة، الكهنة والملوك، الذين ارتفعوا عن العمل في الأرض، وصاروا قوة مسيطرة فوقية، أصبحت تتماهى والسماء الرفيعة، وتضع السمات (النورانية) على وجودها الاجتماعي، لكنها بعد لم تستطع الانفصال الكلي المطلق عن الأم والمنتجين. هكذا فإن انبثاق (آنو) يضع الانقسام العام في التاريخ الديني الأسطوري والاجتماعي، بين السماء والأرض ، بين الرجل والمرأة، بين المالكين والمنتجين ، بين المسيطرين ذهنياً وسياسياً و العاملين . ولهذا فإن صفات الخلق والنور ستعطى والوعي، أي للقابضين على إنتاج الفكر والسلطة، في حين إن صفات المادة والطين والعمل والعبودية ستعطى للمنتجين الماديين. إن عناصر التضاد بين السماء والأرض ستلعب أدواراً كبرى في مختلف تجليات الوعي الديني، وستغدو الأرض والمرأة أكثر فأكثر، مصدراً للشر والفساد وتتشكل من طبقات الأرض السفلى مستويات الجحيم الخ، في حين ستكون السماء مركزاً للنور والقوى المشعة الخيرة والملاذ للأرواح الطاهرة. إلا إن ذلك كله تعبير عن السلطة السياسية والفكرية والاجتماعية، وتمركزها في الطبقات العليا، التي ستعيد إنتاج النور والعلو والسيادة، عبر المقولات المنتجة في كل عصر، وهي هنا في العصر السومري المتداخل في فضاء العراق الجنوبي البابلي لاحقاً، تستعين بمواد الأسطورة في تفسير نشوء الكون وتشكل السمات الرئيسية للمجتمع . كذلك تشكل الإله السومري الخاص وهو(أنليل). إن صعود أنليل مترافق مع تبلور سلطة المدينة . الدولة، الشكل الأولي لظهور السلطة والحضارة في بلاد الرافدين، ويعبر هذا التواصل بين الأب آنو والابن أنليل عن هذه السيرورة الاجتماعية المتراكمة بين المجتمع الأبوي في انقلابه الأول بالسيطرة على النساء والفضاء الاجتماعي، وبين تبلور ذلك كسلطة مدنية محددة في الأجيال اللاحقة. وتقول الأسطورة الشعرية : انظر إلى نيبور عماد السماء والأرض هي / انظر إلى نيبور المدينة / ترى أسوارها العالية / .. هناك أنليل فتاها الغض / هناك ننليل فتاتها الشابة/) ثم تبدأ الأسطورة في تمجيد الإله المسيطر : ذة العينين البراقتين، السيد ذة العينين البراقتين / الجبل العظيم، أنليل الأب../ الراعي، سيد المصائر ..) . لقد تشكلت المدينة دولة ذات موارد زراعية ومائية وفيرة وتجارة ولها أسوار ويهيمن فيها المعبد والإله الذكوري ذو الأهمية القصوى (الراعي، سيد المصائر) التي تقول عنه قصيدة أخرى (أنليل مليكك، أين مضى؟) . وبهذا فإن الخطوط العريضة بين المستوى الديني والمستوى الاجتماعي التاريخي قد تشكلت، وصار الوعي وهو يستهدف إجراء العمليات التغييرية، يعيد إنتاج الأسطورة، أو إنه يقوم بعملياته التحويلية السياسية ثم يضفي على الأسطورة التغيرات المناسبة لهيمنته. ٣ . مستويات الغيب المهيمن تمثل صيغة التحول السابقة الخلية الأساسية في البنية الاجتماعية للمجتمع الطبقي، في المشرق (العربي) ، كما يظهر في التاريخ المكتوب، بجانبيه المادي والروحي، فحيث يغدو الكاهن . الملك مهيمناً على المعبد والملكية العامة الزراعية، فإن الجوانب الثلاثة : السياسية والفكرية والإنتاجية تتداخل، وتصير نظاماً اجتماعياً يتبادل التأثير بين مستوياته الثلاثة. إن الملكية الزراعية المعتمدة على الري، تتطلب تسارع أدوات السلطة لضبط عملية الري في الجنوب العراقي، الذي من دونه لا تتشكل الزراعة، مما يؤدي إلى تنامي الأجهزة العامة، وإبقائها على الملكية العامة القبلية والقروية، وتصاعد نفوذ الدولة على المناطق المجاورة، وجعل إله المدينة يشكل الوحدة الفكرية لأهلها، ثم يتمدد إلى المدن والمناطق التالية، فيصعد على الشبكة الواسعة من الآلهة الصغرى المختلفة، فيبدو الإله وكأنه هو الذي يصنع التطور، وتبدو الحركة الطبيعية والاجتماعية نتاجاً لمجمع الآلهة، أي لهذه القبيلة الإلهية الترميزية للوجود البشري القبلي المسيطر في سيرورته التاريخية. إن الانقسام بين آنو وكي، بين الإله الذكوري المهيمن والآلهة الأنثوية المهيمن عليها، يشير إلى التضاد الواسع بين الرجل والمرأة، بين الإدارة السياسية . الدينية والعامة، متخذاً من المظهر الطبيعي بالتضاد بين السماء والأرض جسده الفكري، فيتشكل هنا التضاد كذلك بين الغيب والمرئي، بين التصورات الذهنية المفارقة والحياة، بشكل أولي وغير تجريدي، لكون الآلهة كافة تتكون في الملموس، في التجسيدات المادية والتمثلات البشرية. أي لكون الوعي البشري عند المنتجين الذهنيين والمنتجين اليدويين متقارباً، مثل التقارب الاجتماعي بين الحاكمين والمحكومين. وإذا كان ثمة غيب سماوي يبرز في الأعالي، فإن ثمة غيباً يتشكل في طبقات الأرض السفلى، حيث يغدو هذا الغيب السفلي مسؤولاً عن ظاهرات الموت والأمراض والغياب البشري الأرضي، ويتوحد هذا الغيب الأدنى بالكائنات (الدنيا) ، أي بالحشرات والزواحف، والعديد من الحيوانات التي ترافقت مع الموت.إن الموتى في هذه الحقبة ينزلون إلى طبقات الأرض السفلى حيث (دار الظلمة، البيت الذي لا يخرج منه من دخله، الطريق الذي لا يرجع منه من سلكه، المنزل الذي حرم ساكنوه النور، التراب طعامهم والطين قوتهم، إنها كلمات من ملحمة جلجامش). وفي الزمن السومري فإن الآلهة الأنثى هي التي تنزل تلك الطبقات السفلى الرهيبة، مما يؤكد استمرار بقايا المرحلة الأمومية، معطية دلالة تفسيرية للزمن ولتحولات الطقس، حيث الغياب والحضور للشمس والقمر والشتاء والربيع، وفيما بعد سيكون هذا النزول للإله الذكر (تموز)، معرباً عن التغلغل الذكوري الواسع في المنظومة الإلهية، وعن توظيف هذا العالم السفلي لتحولات أخرى كبيرة. إذن فإن الغيب، المعبر عن سيطرة الطبقة العليا، وسواء كان سماوياً أم أرضياً سفلياً، هو الذي يمسك بدفة الوجود البشري، عبر تمثلات المرحلة الراهنة . إن التضاد القصي بين السماء والأرض السفلى، هو تضاد تجسده الصور الحادة بينهما، فالأولى لها النور والمطر والهواء ولها الوجود السرمدي، في حين إن الأخرى تتصف بالظلام والفساد والأمراض . إن الوعي البشري هنا يتمثل بتناقض الحياة والموت، والصحة والمرض، والربيع والجفاف، والحلم والواقع الخ .. ولا شك في إن هذه التضادات الوجودية والاجتماعية مرتبطة كذلك بالتناقض بين الناس والسلطة، فالسلطة السياسية والكهنوتية هي الحياة والنور والبقاء الأبدي، حيث أعطى الملوك لأنفسهم صك التوحد مع الآلهة، والإلغاء التام للناس، مثلما يحدث في الحياة السياسية حيث تتصاعد الهيمنة المطلقة للحكام. إن ثمة هوة إذن بين السماء والأرض السفلى . لكن كلتيهما تمتلكان الحضور والسيادة في الوعي الغيبي، بلونين متضادين، في حين تبقى الأرض غائبة. وفي التضاد المطلق بين السماء والأرض السفلى، بين النور الأقصى، والظلام والمرض والموت يتشكل التضاد بين الإله النوراني الخير والشيطان ممثل الشر، وهذا التضاد الذي سيتطور في إنتاجه عبر ثقافات شعوب المشرق المتداخلة. إن هذه الخطوط العريضة لتشكل الدين ستغدو هي الملامح الجوهرية للمراحل اللاحقة. فوجود مدينة تطلع من عماء المياه الأولى، من الغمر، ومن الزراعة الأمومية، ليسود فيها الذكر وقوته العضلية، ملتحماً بالثور الحيوان الأقدر على شق التربة، عبر الأدوات المعدنية، لتتكدس الثروة في المعبد فيديرها الملك الكاهن، فترسم في السماء الرموز الإلهية لهذا التحول الأرضي . إن هذه المدينة التي تلحق الريف والأقسام الرعوية بسلطانها، ستعيد إنتاج نفسها في جغرافيا وتاريخ المشرق، وفي البدء ستكون هذه المدينة مدينة زراعية خارجة من فيض المياه، وسيشكل هذا وحدة صراعية بين المؤسسة السياسية الصاعدة المتحكمة، وبين القاعدة السكانية الفلاحية . إن الجغرافيا الطبيعية أعطت لهذه المدينة مصدراً للثروة، فتصاعد دور المعبد فيها، وفي المراحل الجنينية الأولى يحدث التداخل بين الكهانة والملكية، حتى إذا ازدادت ثروة العمل البشري، حدث الانفصال بين فئتي الهيمنة السياسية والدينية، من دون أن يلغى التداخل، ومن دون أن ينتهي الصراع. والمدينة ليست مدينة صناعة، بل مدينة زراعة وتجارة وحرف، ويلعب القصر (وتابعه المعبد) دور الفاعل الرئيس في تطورها أو اندثارها، فمختلف تجليات الإنتاج تلحق به، لكونه يسيطر على الملكية العامة، مثلما يسيطر على الملكية العامة الثقافية، أي الدين ومنتجاته.

❖فصل من كتاب الاتجاهات المثالية في الفلسفة للباحث عبد الله خليفة الذي سيصدر قريباً عن دار (المدى) بدمشق

العقل واشكالية التحليل السوسيولوجي

ابستيمولوجيا تحوّل العقل البشري من الوهم الى الحقيقة

علاء جواد كاظم

(١-٢)

ان المكان الوحيد الذي قد نعثر فيه على الحقيقة ليس هو في الكل او الوحدة الكاملة ، بل في تلك الاجزاء المغلفة من تجربة الفرد التي نجت من وطأة هذا الكل..

ادورنو

اذا كان الانسان العاقل هو المخلوق الوحيد الذي يمتلك القدرة بعقله تحديداً على ان يربط وجوده بأشياء غير معقولة - حسب ما يرى برغسون- نكون قد حددنا بالضبط ما نقصد بالعقل الفلسفي كما نكون قد تلمسنا بكل جرأة الجذور الحقيقية اللازمة التي مفادها عدم التزام هذا العقل بحدود المعرفة الانسانية وبالتالي التحيز الى ما هو فوق انساني والنتيجة مصادرة الواقع لحساب المثال المنمذج ما وراء التاريخ والموجود فوق الانسان والخارج على الواقع الموضوعي..

ومع ان العلاقة التي تجمع بين العقل الفلسفي والعقل السوسيولوجي علاقة وثيقة ومعقدة وايجابية احياناً، فللفلسفة اثرها العظيم والنهائي في بناء العقل السوسيولوجي وفي تحديد اتجاهاته المختلفة.. الا ان الاختلاف ينصب اساساً - فيما يرى نيقولا تماشيف على مستويات التجريد والمعالجة المنهجية فكلاهما يحاول وصف الواقع وتفسيره، وملاحظة الوقائع والتعميم المشتق من هذه الملاحظات.. الا ان العقل الانساني لا يقف عند اعادة تصوير الاحداث الفريدة غير المتكررة، وانما يسعى الى الكشف عن انماط التكرار والتردد الكامنة خلف الاطار الفردي والتأريخي الى افق آخر من غير رجعة لقاء.. فبينما يفسر عالم الإجتماع المجتمع في ضوء الوقائع الملاحظة من خلاله او من خلال الميادين المتصلة ذات المعرفة الامبيريقية، يفسر الفيلسوف المجتمع في ضوء التفسيرات التي يعطيها للحقيقة المطلقة/ الكلية، ولذلك فإنه يستطيع ان يتحدث عن العلل الأولى، والقيم النهائية والغايات القصوى.

وبينما يحاول العقل السوسيولوجي حسب رؤية اميل دوركهايم التعامل مع الوقائع الاجتماعية (كأشياء) وليس كنظم افكار موضعة: فإن الازمة الحقيقية او الاشكالية التي اطاحت بالعقل الفلسفي، ونالت منه فيما بعد تعبيراً طبيعياً لمسيرة تطورية مارس التاريخ من خلالها مكرها من جديد بالاضافة الى انه كان شكلاً لتوازن ذاتي لواقع مأزوم اجتماعياً ، اقتصادياً وسياسياً تمثل بجملة من الاسباب كان اولها اشتعال الحرب العالمية الاولى، والعالمية الثانية والعالمية الثالثة - الباردة وما تمخض عن ذلك من مظاهر استعمارية وظهور ما يسمى اليوم النامي/ الثالث والازمات الاقتصادية المتلاحقة وانتشار المد الاحمر .. الخ.

واستناداً الى الفرضية التي تدعم قاعدية البنى التحتية ودورها في بناء وتشكيل الانماط المعرفية والنظم الثقافية العامة لشعب من الشعوب ومن ثم صياغة العقل الجمعي له، وبمعنى ادق تبعية العقل لتحولات الواقع.. اذ ان العقل في هذه الفرضية الرصينة جدا مرتهن بالواقع ومتضمن فيه وليس العكس ابداً.. هذه الازمة بكل ابعادها ومستوياتها كانت نتيجتها ان ينتهي القرن التاسع عشر - قرن التنظير الفلسفي متعدد المستويات ذو العقول الاسطورية بهذه الطريقة المريعة الى: حرب، مجاعة و صراعات تجعل العقل فيه لصالح الجنون.

الذي عند هذه النقطة تجاوز عقل القرن التاسع عشر جوهره الاصيل ومقاصده الكبرى، وغاياته النبيلة ليصير الى مجرد اداة تنتهي فضيلتها عند حدود المنفعة الذاتية او تمجيد الدولة العظمى كمثل اعلى للحق الالهي في فلسفة الحق عند فريدريك هيغل. كما تخلى العقل عن كليته وشموليته وتحول الى مجرد قوالب صورية، شكلانية وتنصل فيها عن مسؤوليته في اقامة التوافق وتحقيق الانسجام بين مقاصد الانسان ومسارات التاريخ الحقيقية الى امام. فكان نسياً منسياً..

ما جعل القرن العشرين وما بعده مادياً اذ لم يعد هنالك تنظير او نظرية او حتى حقيقة كلية بل ثمة بحث مضن انساني عن الحقيقة القياسية (الفرعية) المجزوءة من الحق الكلي والبحث المحصور والمحدد بين جدران المجتمع الانساني الكبير فليس بعد اليوم ثمة حقيقة كلية او شمولية في السماء او بين النجوم او حتى يمكن ان تتلبد في فضاء موحش؟؟ وهو تحديداً ما جعل منه قرناً للحرب والخوف من المجهول والعنف والثورة والثورة المضادة والانقلابات السياسية والاجتماعية والعسكرية وبالتالي قرن اكتشاف الانسان لنفسه او اعادة اكتشافها من جديد..

وبالتالي فإن كل هذه المظاهر كانت تجلياً للعقل السائد في القرن الحادي والعشرين وما سبقه بقليل وهو على ما يبدو عقل الطبقة الوسطى - البرجوازية الصغيرة - الخارجة للتو من معركة منتصرة مع عالم الاقطاعية المترهل هدأ العقل المختلف تماماً عن عقل الطبقة ذات الاصول الارستقراطية التي تميل الى التأمل وهي في العموم فرضية جديرة بالبحث والاستقصاء بإرجاع القدرة التنظيرية لدى العقل الفلسفي التأملي كنتاج لصيق بواقع المجتمع الارستقراطي بينما تكون القدرة على العمل والممارسة والفعل تعبيراً لنموذج الانسان المنتج في المجتمع البرجوازي الذي فاز بتحقيق نموذج الثورة الصناعية وحسنة القضاء على الاقطاعية عندما جسد فوزه هذا - طبقياً بسيادة او تعميم نموذجه العقلي وتعزيزه ثقافياً بمناذج معرفية - ابستمولوجية - معينة.

جسد النموذج الاول لإنتصار الطبقة البرجوازية ذات القدرة الصناعية الانتاجية ظهور او اكتشاف الانسان العادي لقدرته على قلب معادلة السلطة في المجتمع الانساني بشكل عام وسيادة ثقافة التغيير وبالتالي الثورة..

بينما جسدت الثورة الصناعية النموذج الثاني وانتشار العمل الصناعي وبالتالي ما هو مرتبط بها من مفاهيم الانتاج وظهور المدن الصناعية الكبرى وبالتالي سيادة النزعة الرأسمالية المشجعة بالقبول الديني وفقاً لما يرى - ماكس فيبر- ثم فائض القيمة ثم الشركات عابرة القارات وقيم الروح الفردية انتهاء بظهور النقيض البروليتاري للمجتمع البرجوازي الذي لوح - كارل ماركس- بإعتباره بديلاً جدياً لمجتمع القهر البرجوازي واعتبار الطبقة البروليتارية بديلاً شرعياً وتاريخياً للبرجوازية في النظم الرأسمالية ومن ثم تراجع القدرة على انتاج فلسفات كبيرة او قدرة على انتاج رؤية متناسقة ومتناغمة بل استحالة تكوين ايديولوجيات كبيرة وعملاقة - كما حدث في السابق مع فلسفة هيغل وعمانويل كانت وفريدريك نيتشه، و هذا تحديداً كل ما يتعلق بحقيقة غياب العقل الفلسفي وافوله اثر انقلاب الواقع الاجتماعي في أوربا آنذاك وولادة نموذج العقل الممارس الذي يؤمن بالفعل كمعيار اساسي في البحث عن الحقيقة.. وبالتالي ظهور نماذج فلسفية تغييرية/ حقلية بمعنى ذات تخصص في حقل معين من الحقول المعرفية وسيادة نموذج الروح التجريدية/ الرقمية/ العلمية.. وتوفر القدرة على تجاوز المحن والازمات الاقتصادية التي اطاحت بعرض العقل التنظيري واستبداله بإنتاج العقول الالكترونية واكتشاف جزيئة الجينيوم الوراثي (دي. اي. ان) اي الخارطة الوراثية لبناء الانسان وبالتالي القدرة على استنساخه بعد النعجة (دولي) ثم تنامي القدرة على تحقيق نماذج متقدمة من المدنية والحضارة..

بعد القرن التاسع عشر تحول البحث عن الحقيقة الكلية الى البحث عن الحقيقة المجردة والموضوعية في جسد النظام الاجتماعي الكلي وفي تفاصيل الانسان وشرعية الدولة بديلاً ونهاية لرحلة العقل الفلسفي الذي استهلك قدرته بحثاً في عالم المجردات والاوهام الفوقي..

لقد كان العقل السوسيولوجي بحق خلاصة فلسفية لقرن ماض بل آخر الفصول في مسيرة تطور العقل الانساني- العملي من التنظير الى ممارسة الفعل، هذه الخلاصة الفلسفية التي الحقت كتاريخ تطوري طبيعي .

اذن فالقضية الجديدة التي يضطلع بها عقل القرن الحادي والعشرين تتركز في البحث عن حقائق جديدة بعيداً عن عالم الاوهام النظرية البحتة داخل النظام الاجتماعي الجديد.. وتشكل هذه الانعطافة الحقيقية التي استفاق عندها العقل والتحليل السوسيولوجي كنموذج ينسجم ويتناغم مع حركة القرن الحادي والعشرين والثورة المعلوماتية كانت خير دليل على ذلك.

وكان ان انتج هذا العقل نفسه ذاتياً واقام عرشه على انقاض الفلسفة المثالية المهترئة كما ظهرت في نموذجها الخاص فلسفة عمانويل كانت ومقولة الشيء في ذاته وعند فلسفة باركلي او النماذج الفلسفية المادية المتسرعة بعض الشيء التي استندت اليها نماذج المعسكر الاشتراكي سابقاً وهي بالحقيقة نماذج فلسفية معدلة تعديلاً وراثياً على ايدي لينين وستالين وايل سونغ وماوتسي تونغ والعجوز كاسترو او الفلسفة الوجودية والمعبر عنها رسمياً بنماذج فلسفة كيركجورد وفلسفة سارتر وبنزوانكر النفسية والفلسفات الحداثية المعاصرة التي افلست في خضم صراعها مع عالم اجتماعي واقعي متحول ويؤكد بوبوف في نقده لعلم الاجتماع البرجوازي بتصريحه حول موت الفلسفة البرجوازية تعليقاً على السيد بيل الذي يقول - لقد شهدنا في السنوات العشر الاخيرة، تهافت ايديولوجيات القرن التاسع عشر وخاصة الماركسية كأنظمة عقلية، والتي كان بإستطاعتها ان تدعي حقيقة تفسيراتها للعالم.